﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾

[النحل: 17 - 21]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من تقرير المشاهدات الكونيَّة إلى المشاهدات العقليّة

لمّا اسْتَدَلّ في الآياتِ السّابقة بالبراهين المرئيّة التي لا ينكرها أحد، والّتي تدلّ على طلاقة قدرته سبحانه في الكون إيجادًا وتجديدًا بقدرتِه على حفظِ ما خلَقَ بعد خلْقِه وإدامته، شَرَعَ هنا في مناظرة الجاحدين واستنطاق المؤمنين وغير المؤمنين على تقرير وحدانيّتِه وخُلوصِ استحقاق العبوديّة له، لخُلوص مبدأ الخلق ومنتهاه إليه، فأبطلَ عبادةَ المشركين لغيره، وقرّر ذلك بالبرهان الواقعيّ العقليّ العجيب، الذي لا يُسْترابُ فيه، ولا يُختَلَفُ عليه، فالمناسبة بين هذه الآيات والسّابقة، هو الانتقال من تقرير المشاهدات الكونيَّة التي لا يُختلف فيها، إلى المشاهدات العقليّة التي قد اختُلف فيها، وهو انتقال بديعٌ في تقرير الحقائق، وتحقيق العقائد.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَيَّانَ﴾: عبارةٌ عن وقت الشيء، وتُقارب معنى (متى)، فهي ظرف زمانٍ، ومعنى (كيف)، ومعنى (أين)، وتكون شرطًا مرّة واسم استفهامٍ مرّةً أخرى، ولم ترِد في القرآن إلّا استفهامًا، ويُسْتَفْهَمُ بها عن المستقبلِ، وتقترن بالشّيء العظيم، والمراد هنا: لا يعلمون وقتَ بعثِهم[1].

(1) الراغب، المفردات: (أيّان)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أيي).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إثْـبـاعُ البرهـان المـحـسـوس بالبرهان المعقول

شرعتِ الآيات في توجيه أسئلةٍ للمنكرين: أتُسَوّون بين من يقدر على الخلْق وبين العاجز الّذي لا يقدر على الخلْقِ في استحقاق العبادة، كما فعلتم في عبادتكم الآلهةَ المزعومة التي لا تخلق شيئًا؟ أفلا تتذكّرون عظمة اللّه؟ فتُفْرِدوهُ بالعبادة، ومع ذلك فما خلقَه اللّهُ وأنعم به عليكم لا يمكنُ إحصاؤه واستيفاء عدده، فلا يمكنكم استيفاء شُكْرِه، ومع ذلك لا يؤاخذكم بتقصيركم في شُكْرِ نِعَمِه؛ لأنّه غفورٌ لكم رحيمٌ بكم، فأوّل أمره معكم إنعام وآخره غفران، وأنتم بين هذا وذاك قاصرون في القيام بحقّه، واللّه سبحانه يعلم كلّ أحوالكم وجميع أعمالكم الظّاهر منها والباطن، وسيجازيكم عليها، والأصنام وغيرها من المعبودات الباطلة الّتي يعبدها المشركون لا تخلق شيئًا وإن صَغُر، فهي مخلوقات صنعها الكفّار نحتًا وتصويرًا بأيديهم، فكيف يعبدونها؟! وهذه المعبودات الباطلة هي جمادات لا حياة فيها، ولا تشعر بالوقت الّذي يبعث اللّه فيه عابديها، وهي معهم؛ ليُلقَى بهم جميعًا في النّار يوم القيامة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهام ودلالتُه:

إنـكـارُ المشابهة بـيـن مـن يخلق ومن لا يخلق

غرضُ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ﴾ تبكيتيٌّ توبيخيٌّ للكفرةِ في اعتقادهم الباطلَ وتنكّبهم الحقّ، وقد جرى هذا التبكيتُ بإنكار وقوع المُشابهةِ والتّسوية بين مَنْ يَخلُق ومَنْ لا يخلُق على طريق التّقرير والاستنطاق للمُخالِف بأسلوب الاستفهامِ عمّا هو بَدَهيٌّ ومُسَلَّم[2].

(1) مجموعة من الباحثين، التفسير الميسر: 1/ 269.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 359.

تعيين المعطوف عليه بالفاء:

الخلقُ برهانُ القدرة وكمالُ الحكمةِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ حرف عطفٍ للتّعقيب والتّفريع، واختُلف في تقدير المعطوف عليه، أيكون قبل الهمزة أم بعدها، رأيان مشهوران في المسألة، فمن جعل المعطوف عليه بعد الهمزة قدَّره: أمَنْ يقدِرُ فيخلُق، ومن جعل المعطوف عليه قبل الفاء ومدخولها معطوفًا على مضمون ما قبله من المخلوقات المذكورة؛ قدَّره: فأمَنْ يَخلُق ذلك كمن لا يَخلُق؟ وقدِّمَتْ همزة الاستفهام للصّدارة، فصار الكلام: أفمَن يخلُق[1].

بلاغةُ استعمال (من):

اجتماعُ النِّكات البيانيَّة أدنى قبولًا من التَّرجيح بينها

آثرَ النَّظم الكريم استعمال (مَنْ) في قولِه تعالى: ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾، وهي تختصُّ بأولي العِلم؛ فتقع على ذوات العقلاء سواء أكانت موصولةً، أم استفهامية، أم شرطيّة، أم غير ذلك، وإنّما عبّر بها هنا في جانب الأصنام الّتي كانوا يعبدونها، رغم أنّها جماد لا يعقِل؛ فلم يقل: (كما لا يخلق)، للتّغليب أو المُشاكلةِ أو المبالغة.

فأمّا الأوّل (التّغليب): فقد نزّل معبوداتهم من الأصنام منزلةَ العاقل العالم؛ لأنّهم عبدوها وسمّوها آلهةً، ومن حقِّ الإله أن يكون عالِمًا عاقلًا، أو لتغليب المعبودات العاقلة كالملائكة وعيسى وعزير على المعبودات غير العاقلة؛ كالأصنام والجمادات لأنّ الموصول بعدم الخلْق في ﴿لَّا يَخْلُقُ﴾، عامٌّ يدخل فيه العاقل وغير العاقل، وإذا اجتمع العاقل مع غير العاقل في عمومٍ، غُلِّب العاقل، إذْ من حقّه التّغليب على مَنْ دونه في الرُّتْبة.

وأمّا الثّاني (المشاكلة): فلأنّه لمّا ذَكَرَ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ أوردَ (مَنْ) في ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ مُشاكلةً ومماثلةً به؛ لوقوعه في صُحبتِه، وهو لونٌ من ألوان البديع.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 245، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 7/ 136.

وأمّا الثّالث (المبالغة): كأنّه استدلّ بالأعلى على الأدنى بطريق قياسِ الأوْلَى للمبالغة في الإنكار والنّعي على عقولهم، كأنّه قيل: إذا كان من يخلقُ لا يتساوى مع من لا يخلُق ولو كانوا من أولي العِلم العاقلين، فكيف يُعبَدُ ما لا يَخْلُق من الجمادات المُصمَتَة التي لا عِلم لها ولا عقل[1].

بلاغةُ التّشبيه:

تنزُّلُ القرآنِ في خطابِ المشركين دليلُ ضعفِ عقولِهم وسماجة أفهامهم

مقتضى الظّاهر تشبيه من لا يَخلُق بمن يَخْلق، لكن لمّا انعكس حال المشركين، فجعلوا أصنامهم أصلًا من حيث الواقع، خاطبهم الله تعالى بقولِه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ﴾ بحسب اعتقادِهم المنتكس على رأسه، فالتّشبيه بحسب مقتضى الحال تشبيه على أصلِه، وبحسب الظّاهر تشبيهٌ مقلوبٌ، إذ الأصل تشبيه من لا يخلق بمن يخلق، والآية جاءت وفق عامود البلاغة بحسب اعتبارِ المخاطَب[2].

فنُّ الطباق:

التنافي بين الخالق والذي لا يخلق

بين قوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ وقوله: ﴿لَّا يَخْلُقُۚ﴾ طِباقٌ بالسّلْب بأداة النفي، فأحد اللّفظين مُثبَتٌ ﴿يَخْلُقُ﴾، والآخر منفيٌّ ﴿لَّا يَخْلُقُۚ﴾، وغرض الطّباق: إظهارُ كمال التّنافي بين المعبود بحقّ والمعبود بباطل، بثبوتِ مُقْتَضَى استحقاق الألوهيّة – وهي صفة الخلْق – لله العظيم، ونفي تلك الصّفة عمّا سواه؛ لنفْي لازِمِه من بُطلانِ دعوى عبوديّته وتأليهِه.

غرضُ الاستفهام:

إنكارُ التسويةِ بين الخالق القادر والعاجز بعد قيام الحجج

الاستفهام في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لإنكار جهل المخاطَبين، وعدم تذكّرهم، وجملة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تفريعٌ مُسَبَّب عن إنكار التّسوية بين القادر والعاجز في جملة ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ﴾، وجملة ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ تفريع مُسبَّبٌ عن تقرير انفراد الله

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 193، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/ 516.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 129.

بالقدرة والإعجاز في الخلْق في الآيات قبله، فكأنه قيل: بسببِ أنّ اللّه خلق الأرض والجبال والأنهار والسُّبل والعلامات والنّجوم، أنكِرُ عليكم التّسوية بين من يخلق ومن لا يخلق، وبسبب إنكار التّسويةِ ووضوحها أنكِر عليكم عدم تذكّركم وعدم استحضاركم لِما لا مجال للخلاف فيه، وهو أنّ من يخلق لا يُناظَر بمن لا يخلُق، كما لا يتساوى الشّيء بضدّه وما يُناقِضه[1].

تعيينُ المعطوفِ عليه بالفاء:

الغفلةُ حجاب التَّذكُّرِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ لِعطفِ مدخولِها على جملة الاستفهام قبله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾، أو لعطف مدخولها على محذوفٍ مُقدّر تقديره: (أجَهِلْتُم هذا فلا تذكّرون)[2]، أو أغفلتم عن خالقكم الحقيقيّ سبحانه فلا تذكَّرون؟ كما سبق بيانه في توجيه قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾.

بلاغةُ استعمال مفردة التَّذكُّر:

وضوحُ المباينة بين الخالق القادرِ والعاجزِ بأدنى تنبيهٍ وتذكيرٍ

آثَرَ النَّظمُ التعبير بمادّة التذكّر في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ دون غيرها، للدّلالة على استحضارِ ما هم بصدَدِه بأدنى مُلابسةٍ للعِلم والتّنبيه، فبمجرّد أنْ يتحقّق لهم أدنى رتبةٍ في العِلم بتلك المخلوقات العظيمة، ويتحقّقَ لهم أدنى تنبيهٍ على أنّه لا يستوي من قدَرَ ويخلُق مع مَنْ عجزَ فلا يخلُق، فلا بدّ أنْ يحصل الاستحضار والانتباه منهم، فما هم بصدده من الإنكار عليهم لجحودهم لا يحتاج إلى إمعان الفِكْر في شيءٍ خفيٍّ متعسِّر؛ بل هم بصدد شيءٍ شديد الوضوح يَحصلُ بأدنى مُلابسَةٍ من الاستطلاع والاستعلام، فلا يُضِلُّهُ إلّا عنيدٌ محروم[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 130، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 123.
(2) محمود صافي، الجدول: 14/ 295.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 192.

بلاغةُ استعمال صيغة المضارع:

دعـوةُ الغافلين للتذكُّر واستمرار أسبابه

استعمل النَّظم صيغةَ المضارع في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ لإتاحةِ الفرصةِ للمخاطَبين أنْ يتذكّروا إذا لم يكن تذكّرٌ منهم قبل ذلك، وفيه إشعارٌ بأنّ السبب الّذي يدعو للتذكّر ما يزالُ قائمًا، وسيظلّ كذلك ما داموا أحياء، وما دامت السّماوات والأرض، فلا جرمَ أنْ يستمرّ المُسبَّبُ، وهو تذكّرهم؛ لاستمرار سببِه الدّاعي إلى حصوله، وفيه تحفيزٌ للهمم أن يتذكَّروا في قابلِ الأيام إن غفلوا في سابقِها، كما أنَّ فيه عنايةً بالفاصلة، فالختْم على هيئة المضارعة أوفق وأمكن في موقع الفاصلة صوتًا ولفظًا ومعنًى.

لطيفةٌ في تخفيف التّاء:

ما أيسر التّذكِرة وأنـفـعـهـا لمن أقبلَ واهتدى

حذفُ التّاء في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ دلَّ على أنَّ التَّذكُّر يحصل بأدنى مجهودٍ، فلم يَقُلْ: (أفلا تتذكّرون)، إذ زيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى، وهنا لمّا حذف التاء؛ أوْمَأ إلى أنَّ المطلوب لا يحتاج إلى كبير جهدٍ، فهو يحصل بقليل تذكّر، إذ التوحيد هو مطلوب الفطرة، والشِّرْكُ عسيرٌ في العقول والقلوب قبوله[1].

نُكتةُ حذفِ المفعولِ:

عـمـومُ الـتـذكُّرِ لمـا سـبـق من الحجج والآيات

حُذِفَ مفعولُ التذكُّر في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ للاختصار والتَّعْميم، ليتناول مضمونَ جميعِ ما سبق، أي: أفلا تذكّرون ثبوتَ هذا الخلقِ العظيم، وتذكرون انتفاعَكم به، وتذكرون ضياعكم إنْ حُرمتُم منه، وتذكرون أنّ من يَخْلُق ذلك، ويقدِر عليه، لا يتساوى مع من ليس كذلك، وتذكرون أنّ القدير الخالق قادرٌ على إذهابكم وإهلاكم - إنْ لم تتذكّروا -؛ فأنتم أهون عليه، فلكثرةِ المُقَدَّراتِ واتّساعها حذف المفعول؛ لأنّ في ذِكْره تضييقٌ للمعنى، فكان حذفُه أبلغ وأوفى[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 192.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 516.

ويحتمل أن يكون الحذف لإقامة المتعدّي مقام اللّازم، أي: أفلا تذكرون، فيصبح التَّذكُّر ديدنَكم وسلوكَكم وعبادتَكم، فتُصبحوا في جميع ميادينكم متذكّرين أوّابين راجعين مستغفرين، ولا ما نع من إرادة الأمرين، بحيث يجتمع في الشّخص التَّذكر الذّاتي، مع تنوّع ما يتذكّره، وهو الأوْلَى بالقبول، والأدنى لرواء البلاغة.

نوعُ الواو ومعناها:

النّعمُ المذكورة يسيرة والمطوي أعظم وأرسخ

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ وهي كالتَّذييل والتّكملةِ والنَّتيجة له؛ لأنّ قوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ من غير تعيين مفعول يدلّ على إطلاق القدرة بالخلْق، وهو يفيد الاتّساع والفُسْحةَ اللامحدودة في المخلوقات التي يتضمّنُ إيجادها كثيرًا من الإنعام على بني آدم، فإذا كان سببُ الإنعام - وهو الخلْق - غير محدود، فكذلك النِّعَم النّاتجة عنها تكون غيرَ محدودة وغير معدودة.

وَيَحْتَمِلُ أنْ تكون الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾ استئنافيّة، لإجمالِ النِّعم والإخبار باتّساعها وعدم تناهيها، بعد تفصيل بعضها في الآيات السّابقة؛ ليندفِع بذلك الإيهامُ بأنّ تلك النِّعم المنصوص عليها سابقا هي كلّ النِّعم، فجيء بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾؛ ليدلّ على شأنِ الإنعام العظيم الّذي يتجاوز حدود المذكوراتِ من قبل، وأنّ التفصيل السّابق ما هو إلا مِثالٌ فقط على عمومٍ لا ينحصِر في أفراد أنعُمِ اللّهِ الخالق القدير[1].

فوائد استعمال ﴿وَإِن﴾:

مـــا أكـــثر الغافلين، وأقلّ الشّاكرين

صُدِّرت الجملة الشرطيّة في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ بأداةِ (إنْ) المفيدة لعدم قطعيَّة التّحقّق؛ لفوائد عديدة، منها:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 123، ومحمود صافي، الجدول: 14/ 297.

التنبيهُ على أنّ ليس كلُّ الناسِ يُبادِر إلى تعديدِ نِعَمِ اللّهِ عليه، والتَّعريض بالغافلين عن مُلاحظة النِّعم والانتباه إلى تفاصيلها وأفرادها، والتَّحضيضِ للمؤمنين؛ فإنَّ المؤمن عندما يعلم أنَّ عمومَ الخلق لا يبادرون إلى تعدادِ نعمِ اللّه تعالى عليهم، فإنَّه يُسابق إلى ذلك، قصدًا إلى الشكر.

بلاغةُ استعمال مفردة العدِّ والإحصاء في سياقٍ واحد:

إن تحقّق عدُّ النِّعم فلن يتحقّقَ إحصاؤها

العدُّ توطئةُ الإحصاء وبدايةُ الشّروع فيه، فلا يتمّ الإحصاء إلّا به، والإحصاءُ هو إتمام العدّ؛ لأنّه تحصيلٌ لعددِ الشّيء، والعدُّ هو ضمّ الأعداد بعضها إلى بعضٍ؛ بغرض توفيةِ عددها وتحصيلها، ولذا بدأ بفعلِ العدّ، وانتهى بفعل الإحصاء؛ فقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾؛ ليدلّ بذلك على الوسيلةِ والغايةِ معًا[1].

سرُّ إفرادِ النِّعمة مع ذكر العدِّ ولا يُعدُّ إلّا الجمع:

أوجهُ النِّعمةِ الواحدةِ لا تُحصى فكيف بالنِّعم الكثيرة

أفردَ ذكرُ النِّعمة في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ النّعمة هاهنا اسمٌ أُقيم مقام المصدر، فيقال: أنعمَ اللّهُ عليه إنعامًا ونِعْمَةً، أقيم الاسم مقام الإنعام؛ كقولك: أنفقت عليه إنفاقًا ونفقةً، بمعنًى واحد؛ ولذلك أفرد ولم يُجمَع لأنّ من حقّ المصدر الإفراد، ومن حيث دلالتُه على المعنى المجرد (الإنعام) يتناول القليلَ والكثير بحسب متعلَّقاتِه من الأعيان قِلّةً وكثرة، والنِّعمةُ الواحدة لها أوجهٌ كثيرة، فكلُّ وجهٍ منها إن أُريد عدُّه فلا يُحصى، فكيف بكلّ نعمةٍ؟ ويدلّ هنا على الكثرة بقرينة قوله: ﴿لَا تُحۡصُوهَآ﴾، أو المراد بالنّعمة اسم الجنس، أي: جنس الشّيء المُنعَم به وحقيقته، والمراد به الجمع لا الواحد، والاستغراق والعموم، بدليل تعريفه بإضافته إلى اسم الجلالة، والتّعريف بالإضافة هنا تعريف الجنس المفيد للاستغراق، إذِ المفرد يفيد الاستغراق بالإضافة، ونُكتةُ مجيئه على صيغة

(1) الراغب، المفردات: (حصا - عد).

الإفراد؛ لتناسُبِه مع التّحدّي بعدم عدّه، فكأنّه لمّا كانت النِّعَمُ غيرَ متناهيةٍ في إحصائها واستيفاء تعديدها؛ جاء بها على لفظِ الإفراد الذي لا يدخل فيه الإحصاء[1]، وهذا في غايةِ نفي ما قد يُظنُّ أنَّه يتحقَّقُ، وهو من بديع إثبات النِّعم الكثيرة، والآلاء العديدة.

بلاغةُ إضافةِ النِّعمة للفظِ الجلالةِ دون الرَّبِّ:

المنعمُ هو المستحقُّ للعبادة وحده

أُضيفَتِ النّعمة لاسم الذّات ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾، فلم يَقُلْ: (نعمة ربّكم) إذِ النِّعمةُ إحسانٌ يُناسبُ وصفَ الرُّبوبيّة فيما يظهر! وذلك أنّ السياق في مقام الاستدلال بالنّعَمِ العظيمة والآلاء الجسيمة على ألوهيّة الخالق سبحانه، فهو مقامٌ يجمع بين الامتنان والاستهجان؛ الامتنان عليهم بالنّعم، والاستهجانُ مِنْ كفرانِهم تلك النِّعم بعبوديّة غيره، فاستلزم هنا إضافة النِّعمة إلى اسم الذات ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لتقرير انفراده بإيجادها لهم وإيصالها إليهم وحده لا شريك له؛ لإبطال استحقاق غيره للعبادة معه، لانعدام سببِ العبادة في غيره، وهي الهيمنةُ بالألوهيّة بالقُدرةِ على الخلْق والإنعام، ومضمون هذا التقرير يقتضي الإسنادَ إلى ما يتضمّن معنى الألوهية الكاملة التي تشمل جميع صفات العظمة والكمال، والتي وصفُ الربوبيّة من آحادها وأفرادها، ولذا أضاف النعمةَ إلى الاسم الجليل.

اختيار لفظ الجلالةِ بما يتناسب مع سياق الامتنان

كما أنَّه لا يخفى أنّه لو أضاف النِّعمةَ إلى لفظ الربوبيّة في هذا الموضع، فإنَّه لا يُناسب توبيخَهم وتبكيتهم السّابق على عدم التَّذكّر، والنّعي على عقولهم في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ لأنّ إضافة النّعمة إلى الرُّبوبيَّة يلزم عنه إضافته سبحانه إلى ضميرهم (وإن تعدّوا نعمة ربّكم)، ولو كان ذلك كذلك، لكان

(1) الواحدي، البسيط: 12/ 482، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 385، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 99، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 200، وابن حيان، البحر المحيط: 5/ 428، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 195.

فيه إشعار بالقرب والخصوصيّة المنافية للتبكيت والتعريض بهم، ولا يخفى كذلك ما في الاسم الجليل من معاني المهابة والتّعظيم الّتي تردع المحرومَ عن شكْر نعمة اللّهِ بتمحيض العبوديّة له وحده.

براعةُ استعمال المضارع:

مهما استمرَّ عدُّ النِّعَمِ؛ فلن يحصيها

التّعبير بصيغة المضارع في الفعلين: ﴿تَعُدُّواْ﴾، و﴿تُحۡصُوهَآ﴾ في قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ العدَّ وإنِ استمرَّ باستمرار الحياة فلن يُحصَى بتوفيته وإتمام مُنتهاه، ففي المضارعة تقريرٌ لمعنى التحدّي بالنِّعَم بأنّها عَصيَّةٌ على العدّ، مَنيعةٌ على الإحصاء، مُتعسِّرةٌ على الإحاطةِ بها تفصيلًا وتحليلًا.

علَّةُ الفصلِ ودلالته:

سعةُ رحمةِ الله لخلقه مع تقصيرهم في شكره

جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ استئنافيّة لما قبلها، وهي في معنى التّعليل لقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾؛ لأنّ انتفاء إحصاء النِّعَم يقتضي انتفاء القيام بحقّ شكرها كما ينبغي على جهة المطابقة، وانتفاءُ القيام بحقّ شكرها تقصيرٌ يقتضي العقوبة عليه، ولكن بسببِ أنّ اللّه غفور رحيم تجاوز ولم يُؤاخِذ، فجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تعليلٌ لما يقتضيه الحكم بعدم الإحصاء، أي: عِلّةُ أنّكم غيرُ مؤاخَذين على عدم إحصائكم للنّعم المُقتضي لتقصيركم في الشّكر؛ هو أنّ اللّه غفور رحيم، ولذلك فُصِلت الجملة.

ويصحّ إجراء قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ على الاستئناف البيانيّ ممّا قبله، كأنّه بعد قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ سأل سائلٌ: فماذا فِعلُ اللّه بنا بعد انتفاء تحقيقنا لِنِعَمِه إحصاءً وشُكْرًا؟! فأُجيبَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وجملة الاستئناف البيانيّ لا توصل بما قبلها ولذلك فُصِلَتْ[1].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 517، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 360.

غرضُ التّوكيدِ ودلالاته:

فسحةُ الرّحمةِ بـابُ المغـفـرة، وهو بابٌ مشرَّعٌ لكلِّ أحد

أُكِّدَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بثلاثة مؤكِّدات: ﴿إِنَّ﴾، و(اللّام)، و(اسميّة الجملة)، فأفادت ﴿إِنَّ﴾ مع التّوكيد ربطَ الجملة بما قبلها بما يُغني عن العاطف، وأفادت التّعليل مع ما قبلها بما سبق توضيحه، وأكَّدتِ اللّام مضمونَ الجملة وثبوتَ النّسبة بين المسند والمسند إليه، وأفادت اسميّة الجملة ثبوت الوصف ودوامه واستمرار تحقّقه بالمغفرة والرّحمة الدّائمتين، اللّتين لا يعتريهما الأغيار، ولا تتأثّران بحدود الزّمان وقيوده.

واجتماع هذه المؤكّدات في محلٍّ واحد، هو لمُبالغةِ المُخاطَبين في تقرير مضمون الجملة، وتنزيلهم منزلةَ المتشكِّك أو غير المطمئنّ لموعود الخبر، أو تنزيلهم منزلة المتردّد غير الجازم بحصول الموعود من المغفرة والرّحمة، وعِلّة هذا الاعتبار: أنّ المخاطَب بعد قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾، قد يتشاءم بالتّرهيب والإيعاد المُتضمَّن في انتفاء الإحصاء المذكور، فيتوقّع السّوء، لا سيّما وأنّ المُخاطَبَ بذلك كلا الفريقين من المؤمنين والكافرين، فحتّى لا يجزع المؤمن ولا يقنط الكافر، ذيّل الآية بما يُخلِف تلك التوقّعات المحتمَلة، فبالَغَ في توكيدِ ما قد يُظَنّ خِلافُه من المُخاطب؛ لكون المخاطَب حينئذٍ في حكم المتردِّد أو غير المتوقِّع، فنزّله منزِلَتَه[1].

توجيهُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

رعـايـةُ التَّقابُل بـين الـتـرهـيـب والترغيب

آثرَ النَّظم الكريم إظهار لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلم يَقُلْ: (وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إنّه لغفور رحيم) بإضمار الاسم الجليل اعتمادًا على إظهاره السّابق، وذلك ليوازِنَ جناحَ التّرهيب بجناح التَّرغيب، فكما أظهر في مقام التَّرهيب من كفران النِّعَم بالإيماء إلى استباقِ وتكثير شكرِها بما

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 323.

فُهِم من قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾؛ كذلك أتى بالاسم الجليل ظاهرًا في مقام التّرغيب والإعذار بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، ولو أضمَر لم يكن بين المقامين تساوٍ في التناظُر والموازنَة المُتقابلة بينهما، إذِ التّصريح بالاسم الجليل أقوى من إضماره؛ لأنّ معه استحضارًا للذّاتِ العليّة ذِكْرًا وفِكْرًا، بما يُثبِّتُ النّفوس ويبُثّ فيها السّكينة بمعاينة اسم الذّات الجليل بإزاء صفتيه العُلْيَيَيْن من المغفرة والرّحمة، فالنّطق باسم الذّات في هذا المقام يُربّي المهابة في النّفْس ويَدفعها لِلْبِدارِ إلى العبوديّة الخالصة بالشّكر قولًا وعملًا واعتقادًا، فإنّه كذلك يُشعِر بعلّيّة إتْباع التّقصير بالمغفرة والرّحمة، ذلك أنّه اللّه! أي: الكامل العظيم الّذي استوفى صفاتِ الجمال والجلال والكمال؛ ولذا سبقتْ رحمتُه غضبه لكمال ذاته وعلوّ شأنه[1].

نوعُ الواو ودلالتها:

بعد بيان العجز عن الإحصاء ناسب ذكر علم العلانية والإسرار

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ إما أن تكون استئنافيّة؛ لتقرير عِلم اللّه بأعمال الخلْق من جميع الوجوه، وفي جميع أحوالهم الظّاهرة والباطنة، بعد تقرير أنّ إنعام اللّه عليهم أوفى من أعمالهم، وأنّهم لن يَقْدُروا نعمة اللّهِ عليهم حقّ قدرِها في الإحصاء حتّى يقدروها قدرها في الشّكر والعمل، فالجملة تقريرٌ لقدرتِه تعالى على حِسابهم بناءً على صفة العِلم العليّة، بعد تقرير عجْزِهم عن حِسابِ نِعَمِه لقصور عِلمِهم عن إحصائها.

وإمّا أن تكون الواو عاطفةً، وفي العطف وجهان:

الأول أن تكون قد عطفت مدخولها على قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، كأنّه قيل: إنّ اللّه لغفورٌ في تقصيركم عن شُكرِ ما لا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 130.

تُحصونه من نِعَم الله، وإنّ الله يعلم سِرّكم وعلانيتكم، فلكونه سبحانه كذلك أغناكم عن التزامكم بشكر كلّ نِعمة تخفيفًا عليكم.

الوجه الآخر: أنْ تكون معطوفة على قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ لاستتمام إثبات صفة العلم لله بعد ثبوت صفة الخلْق؛ ليدلّ على أنّ الخلْق بأدلّته التّفصيلية المذكورة في الآيات سابقًا حاصِلٌ بالقُدرة وحاصِل بالعِلم، فالقُدرةُ في أصل الإيجاد وهي مفهومةٌ وظاهرةٌ بمجرّد تعديد المخلوقات العظيمةِ المذكورة، والعِلم في كيفيّة الإيجاد على هذا النحو البديع المتفرِّد في كلّ جنْسٍ ونوع[1].

توجيه إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

أُظهر الاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، ولم يُضمِره لتقدُّم ذكره؛ وذلك لِقصدِ إجراءِ كلّ صفةٍ من الصّفات العليّة على الذّات الجليلة، فالنّظْم الكريم قاصِدٌ إلى بيان أنّ المُتَّصِفَ بالرّحمة وبالمغفرة وبإحاطة العِلم في السّرّ والعلانية هو الذّات الجليلة المستحقّة للكمال والجلال (الله)؛ ليستحضر المُخاطَبُ ذاتَ الإله الكامل مع كلّ وصفٍ من تلك الأوصاف، فيزداد المؤمن إيمانًا وخشيةً وعِرفانًا ومحبّةً لله العظيم الموصوف بتلك النّعوت السّامية، ويُقْرَعُ بذلك سمعُ المُخاطَبِ المُنْكِر زجرًا له وإرعادًا من معنى اسم الذّات الجليل؛ ليَفيءَ ويرعوي ويَؤوبَ إلى الهدى والرّشاد[2]، ولتجري هذه الجملة الجليلة مجرى الأمثال السّائرة، وتكون عنوان القلوب الحائرة.

إجـراءُ الصفات عـلى الـذات الجليلة ترغيبًا وزجرًا

فائدةُ تقديمِ المسند إليه على المسند الفعليّ:

قُدِّم المسندُ إليه لفظ الجلالة (الله) على المسند الفعليّ ﴿يَعْلَمُ﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾، دون العكس، فيُقال: (ويعلم الله)؛ للدّلالة

عِـلْـمُ إسـرار الإنسانِ وإعلانه خـصـيـصـةٌ لا يعلمها أحدٌ من البريّة

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 385، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 124، ومحمود صافي، الجدول: 14/ 298.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 131.

على الاختصاص والحصر، فالله وحده، لا غيره مختصٌّ بِعلمِ السرّ والعلانية، وفيه من الجمع بين الرّهبةِ منه سبحانه والرّغبة فيه ما لا يخفى[1]، وعلمُ الله تعالى لما يُسرّه الناسُ وما يعلنونه متقرِّرٌ تقرُّرًا ذاتيًّا، فالتّقديم في الحقيقةِ هو لتقويةِ الحكم الإسناديّ، وأمّا الاختصاص فمنتزعٌ من السّياق.

دلالةُ التّعبير بالمضارع لفعل العلم:

علمُ الله محيط بـــكـــل شيء إجمالًا وتفصيلًا

التّعبير بالمضارع يُفيد في غالب استعمالاته التّجدُّد، لكنَّه في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ أفاد أنّ أفعالهم في موضع الترصّد المستمرّ، فكلّ إسرارٍ وإعلان فالله يعلمه على الدّوام، فالأفعال معلومةٌ بتفصيلاتها وجزئيّاتها وآحادها، فالتّعبير بالمضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾ إشارة إلى تمام علم الله بالجزئيات كما يعلم الكليّات، فهو دليلٌ على استمرار عِلمِ اللهِ بأفعالهم، وأنّه سبحانه ما يزالُ يَشملُهم بعلمه، فلا يفوتُ عِلمُه شيئًا من أحوالهم، وجاء التّعبير بالعِلم بصيغة الفعل ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ لِمناسبة اقترانه بأعمالهم ﴿تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ والأعمال زمانيّةٌ حادِثة، فقال: ﴿يَعۡلَمُ﴾ دون (عليم) كأن يكون النَّظم: (والله عليم بما يسرون)؛ ليدلَّ على أنَّ كلَّ عملٍ يُحدِثونه يَصحبه عِلمٌ خاصٌّ به في زمَنِه، فالتّعبير بالفعل المضارع يُشْعِر بأنّه ما من عملٍ يعملونه إلّا وله نَسَقٌ من عِلمِ اللهِ يقترن به.

كما أنَّ التَّعبير بالمضارع يُراعي حال المُخاطَبين، فلو قال: (والله عليم)؛ لظنَّ هؤلاء الجَهلة أنَّ علم الله تعالى متعلّق بما كان لا بما هو كائن، فخاطبَهم بما يفقهون؛ ليدفع عنهم غائلة الأفهام السَّقيمة، وهو ما يُرَشِّحُ أنَّ علمه تعالى ترصدٌ ورقابة.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 248.

بلاغةُ الكناية:

علمُ اللهِ بأفعال العباد يلزم عنه العقاب أو الثّواب

عبّر النَّظم بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾؛ لأنَّ إسنادَ العِلم إلى الله تعالى كنايةٌ عن المجازاة والمُحاسبة؛ لأنّ الغرض من الإخبار أنّهم واقعون تحت عِلمه في كلّ أحوالهم، وهم مجزيّون مُحاسبون بذلك، فلمّا كان الغرض من ذلك اعتبارَ الجزاء الذي ينتظرهم بسبب إحاطة عِلم الله بهم؛ عبّر بصيغة المضارعة في العلم؛ لأنّ المُجازاة استقباليّةٌ حادثة، فكأنّه قيل: كلّما أحدثوا عملًا في الظّاهر أو في الباطن أحدثْنا لهم جزاءً عليه بما لنا من عِلْمٍ ما يزالُ كشْفُه وإحاطتُه[1].

احتمالات ﴿مَا﴾ ونكتةُ استعمالها:

استيفاء جميع المعاني مقصودُ النَّظم في سياق الشّمول

آثرَ النَّظم التّعبيرَ بأداة ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾، وذلك لاحتمال النَّظم معنيين:

الأول: أن تكون بمعنى الاسم الموصول، ونكتةُ التَّعبير بها دون الموصول الظّاهر، فلم يَقُلْ: (الّذي يُسرّون)، وهي مستعملة في صفات العقلاء؛ لإفادةِ الإبهام والعموم، فتقع على كلّ شيء يَدخل تحت لواءِ لفظيِّ السّرّ والعلانية.

الآخر: أن تكون مصدريّة، بحيث تؤَوّل مع الفعل بعدها بمصدر، فيكون المعنى: يعلم إسراركم وإعلانكم، ونكتةُ المصدريّة: الجمع بين معنى المصدر ومعنى الفِعل في مَوْرِدٍ واحد[2]، والاحتمالان مرادان، فالله يعلم كلَّ ما يُسرِّه النّاسُ ويُعلنونه، مهما دقَّ أو جلَّ، في قديمٍ أو جديد، وهذا لا يكون بهذه الدِّقة لو أتى النَّظم بتعبيرٍ آخر.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 248.

(2) سيبويه، الكتاب: 2/ 309، والسّمين الحلبي، الدر المصون: 6/ 289، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 131.

نكتةُ التّعبير بالمضارعِ لفعل الإسرار والإعلان:

عِلْمُ الله شاملٌ للمستجدّات كما هو للسّابقات

عبَّر النَّظم بالمضارعِ في قولِه تعالى: ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ لبيانِ أنَّ علم اللّه تعالى شاملٌ لما يستجدّ من إسرارٍ وإعلان، وأنَّه لا تفوته الصَّغائر الخفيَّة الحادثة ولا الواضحة الجليّة القادمة، وللإيماء إلى أنَّ علمه تعالى الّذي هو كناية عن رقابته على عبادِه، سيكون للمستجدّات كما هو للسّابقات، وهو أرسخ دلالة من أن يُقال: (ما أسررتم وما أعلنتم)، ودقائق النَّظم توحي بأنَّ الإنسان يجهل صفات اللّه تعالى، وأنَّه عليم بما كان وما سيكون وما هو كائن، وإن عَلِم ذلك معرفةً مجرَّدة، فقد يتهاون في معرفته معرفة سلوكيَّة مقوِّمة.

غرضُ حذف المفعولِ:

أفعال الإنسان ما بين إسرارٍ وإعلان والله بهما قد أحاط

حُذفَ متعلّق الإسرار والإعلان في قوله تعالى: ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ فلم يعيّن مفعول الإسرار والإعلان، وذلك لغرضين:

الأول: عدمُ إمكانِ تعيُّن المفعول أصلًا؛ لأنّ المقصود هو العموم المُطلق الدّال على إحاطة العِلم التامّة بكل ما يُسَرّ وكلّ ما يُعلَن، في الجزئيّات والكّليّات وما دون ذلك وفوقه.

الثاني: تنزيلُ الفعل المتعدّي منزلةَ الفعل اللّازم، وهذا حال الإنسان، فأفعاله ما بين إسرارٍ وإعلان، فاتِّصاف أفعال النّاس بالإسرارِ والإعلان، هو اتِّصافٌ شاملٌ لكلِّ أفعالهم، فلا تخرج عن هذين الوصفين، فالحذف جاء لهذين الغرضين، وبه تتحقَّق جزالةُ النظم الكريم، وما يتعلق بالغرض الصَّوتي من مراعاة الجرس في الآية وفاصلتها فهو تابع للدّلالي.

براعةُ تقديم الإسرار على الإعلان:

تساوي علمِ الله بالسر والعلانية

قدَّم النَّظم الإسرارَ على الإعلان في قوله تعالى: ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، وذلك للآتي:

الأول: دَفْعُ تَوَهُّمِ المخاطَبين، فالإنسان يَتَوَهَّمُ أنَّ إسرارَه يخفى، فآثرَ النَّظم بما هو في اعتقاد المخاطَب أخفى؛ لدفعِ هذا الظَّنِّ.

الثّاني: معرفةُ الإسرار أصعب من معرفة الإعلان في علم الإنسان، لكنَّهما يتساويان في علم الدَّيّان، فآثرَ البدءَ بالأصعب فيما يظنُّه العاجز؛ لدفع مظنَّة صعوبته لدى اللّه القاهر سبحانه، ولو عكس لوقع اعتقادُ المخاطَب في شَرَك إبليس.

الثّالث: مراعاة واقع الأفعال، فالأفعال تبدأ سرًّا، ثمّ يُصبح بعضُها علنًا، فآثرَ النَّظم البدء بالإسرارِ؛ لدفعها لدى العاقل إن كانت في دائرة أفعال الأشرار.

بديعُ فنِّ الطِّباق:

الأضـدادُ قرائن الإحاطةِ ودلالاتُ الشُّمول

بين قوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ﴾، و﴿تُعْلِنُونَ﴾ فنُّ الطِباق بالإيجاب، صُرِّح فيه بالضِدّين؛ الإسرار والإعلان، وغرض المطابقة الدّلالة على استغراقِ علم اللّه ﷻ لأحوال المخلوق جميعًا الظّاهر منها والباطن، وفيه إيعادٌ لمن يستخفي من اللّه، ويستبطن السّوءَ والكيدَ، أنّ عِلمَ اللّهِ مُدرِكُه وكاشِفُه مهما تستّر أوِ استخفى، وفيه تعريضٌ بالمنافقين أنّ عقائدهم الفاسدة وأضغانهم الباطلة مرصودةٌ مرقوبةٌ وإنْ كتموها فلم يُفصِحوا عنها؛ فإنَّ اللّه يعلمها.

فوائدُ الإخبار بعلم الله تعالى:

تنوُّعُ فوائد الخبرِ دليـلُ تمـكّن النَّظم من سردِ الحقائق وعرض الدّقائق

للخبرِ القرآنيِّ أغراضٌ بديعة سوى مجرَّد الإخبار، فإنَّ للخبرِ فائدةً ظاهرة، وفوائد أخرى باطنة، كما أنَّ له لازم الفائدة، ومن فوائد إخبار اللّه تعالى للمخاطَبين بأنَّه يعلم إسرارَهم وإعلانهم:

أولًا: التّعريض بفريق المشركين وإبطال عقيدتهم في معبوداتهم الباطلة، كأنّه قيل: (أفمن يعلم سِرّكم وعلانيتكم كمن لا يعلم ذلك)، بعد أن قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾، فتحدّاهم بالعِلم بعد أنْ

تحدّاهم بالخلق، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ إمعانٌ في التّحدّي والتّبكيت، وهو للمؤمنين زيادةٌ في الهُدى والتّثبيت.

ثانيًا: العِتاب في التّقصير بعد التّخفيف والتّيسير، فبعد أنْ أخبرهم أنّه لم يُكلفْهم حقّ الشّكر على نعمِه؛ لعدم إمكان إحصائها، فرضيَ منهم اليسير من الشّكر، أخبرهم في قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ إلى أنّهم رغم ذلك قصّروا في الميسور المُمكِن، فعاتبهم وحذّرهم بأنّه يعلم سِرّهم وعلانيتهم، فيجازيهم على إحسانهم وعلى تقصيرهم في الأمرين معًا.

ثالثًا: الغرض من الخبر إفادةُ تمكّنِ عِلمِه ﷻ من جميع المعلومات، ففيه إشارةٌ إلى سَبْقِ تعلّقِ عِلمِه بالخفيّ قبل الظاهر، ففي تقديم السرّ على العلانية إشارة إلى كمالِ الصّفة في الكشْفِ والإدراك والدّراية.

رابعًا: المساواة بين عِلْمَيْه المُتعلِّقين بالسرّ والعلانية على أكمل وجه وأتمّ غاية، وفيه دلالة عظيمة، وهو أنّ الله يعلم السِرّ المضمر في الصدور قبل إيجاده في الخارج، ويعلمه بعد إعلانه وإنفاذه، فهو عليمٌ بالكيفيّتين، وفي ذلك من الوعيدِ بهم والإيذانِ بمحاسبتهم على مثقال الذرّ، والتشهير بعجزِ من أشركوه مع الله في عبادتهم في الخلْق والعِلم[1].

بلاغةُ العطفِ بين المتقابلات:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾، وعلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ لإتمام المقابلة بين الله ﷻ

العبوديَّةُ حقٌّ لله تعالى المتصف بالخلق والعلم والقدرة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 105، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 361، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 125.

المُستحقّ للعبوديّة الخالصة بما اتّصف به من كمال القُدْرَةِ وتمام العلم وانفراده بالخلْق، وما يدعونهم أربابًا من دونه المسلوبين من تلك الصّفات التي تَقضي بعدم استحقاقهم ونزول رُتْبَتِهم[1].

نكتةُ استعمالِ الاسمِ الموصول:

عـقـلُ الـكـافـر مـحـجـوبٌ عـن استبانة الحكمة ورؤية الحقّ

صُدِّرت الجملة ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالاسم الموصول الظّاهر؛ لتمييزِ المُخبَرِ عنه أكملَ تمييزٍ، فهم يعرفونه حقّ المعرفة ومُتَعَيِّنٌ لهم في خصائصه وأوصافه، ومع ذلك يعبدونه ويُشركونه مع الخالق العظيم، ففي الموصوليّة نعيٌ على عقولهم وتعريضٌ بهم وذَمٌّ لهم، والمقصود بالموصول معبوداتهم من الأصنام، وعبّر عنها بالّذين، وهو للعاقل؛ لكونها عُبِدَتْ واعتُقِدَ فيها الألوهيَّة، فنُزِّلتْ منزلة من يعقِل، تمامًا كما حصل في (مَنْ) في قوله: ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾، والضّمير في الآية للمشركين الّذين هم بعض المُخاطَبين بالضّمائر في الآيات السابقة[2].

بلاغةُ حذفِ الموصوف:

ينغمِرُ الكافرُ في بئر الغيّ حتّى يعبد من هو أعجز منه

حُذف الموصوف في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وأُقيمت الصِّفة وهي الاسم الموصول مكانه، والتّقدير: والأوثان الّذين تدعونها من دون الله، أو الأوثان الّذين يدعونها من دون الله، على القراءتين، غَيْبَةً وخطابًا ﴿يَدۡعُونَ﴾ و﴿تَدۡعُونَ﴾[3]، فحذفُ الموصوف، وهو الأوثان، والمفعول العائد عليها، وهذا الحذف جزل جدًّا، مناسبٌ لحال المخاطبين، إذ يُضمِرون عدمَ قدرة الأوثان على شيء، فجيءَ بالاسم الموصول بدلًا من الموصوف؛ لثلاثةِ أمور:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 131، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 125، ومحمود صافي، الجدول: 14/ 298.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 157، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 125.

(3) عاصِم ويَعْقوب: (والّذين يدعونَ) بِالياءِ، والباقونَ بِالتّاءِ. يُنظر: ابن الجزري، تحبير التيسير، ص: 430.

أولًا: الإشارةُ إلى المعبودات، إذ يكفيهم ذلك، وحذف الضّمير تابعٌ لحذف الموصوف.

ثانيًا: الاكتفاءُ بالاسم الموصول لعدم مقابلة اسمهم الصَّريح مع اسم الله تعالى.

ثالثًا: تنوُّعُ المعبودات وتعدُّدها، فكان ذكرُ الاسم الموصول شاملًا لعمومِ المعبودات، وهو أولى من النَّصِّ في التَّعيين.

فائدة تقديمِ المسندِ إليه على المسند الفعليّ المنفيّ:

سفيهٌ من يعتقد في سافِلِ الرّتبةِ شأنًا

قُدّم ذكرُ المسند إليه (الموصول) على المسند الفعليّ المنفيّ الواقع خبرًا، وهو قوله: ﴿لَا يَخۡلُقُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾؛ للاهتمام وتقوية الحكم، على معنى: تلك الأصنام لا تخلقُ شيئًا، كيف وهي جامدةٌ صمّاء؟! أو للاختصاص، فيكون بقصد المبالغةِ المجازيَّة بغرض التنبيه على حقارة الرّتبة ونزول المقام، وهو مؤذِنٌ بِتَسَفيهِ عقل من يعتقِدُ في سافلِ المكانةِ شأنًا.

نكتةُ التَّعبير بالمضارع في فعل الدُّعاء:

عبادةُ المشركِ ليست مجرَّد فعلٍ طائش؛ بل هي منهجٌ فاشٍ

صيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تُصوّر مدى سماجَةِ وحماقةِ الدّاعين غير الله تعالى، وهم يُزاولون دعاءهم وتعبّدهم لِما لا ينفع ولا يضرّ ولا يعلمُ ولا يَخلُق؛ فهيْئَتُهم المَقيتَة، وهم مُتلبِّسون بالفِعل، تَحكي إصرارَهم واستمرارَهم على مُزاولة الشِّرك وتكريرِ أعمالِه وتجديدِ أحوالِه، وهي كذلك تُبيِّن أنَّ دعاءهم ليس مجرَّد فعلٍ طائشٍ؛ بل هو منهجٌ فاشٍ، فهم يدعون دعاء المقبل على طلب حاجاته ومنافعه ومصالحه، وهو ﷺ الحريّ بذلك.

براعة اختيار لفظ ﴿دُونِ﴾ لا (غير):

لا تستوي فوقيّة الحقيقة مع دونيّة الزّيف

آثرَ النَّظم ذكر الدّونيَّة دون الغَيْريَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فلم يَقُلْ: (يدعون من غير الله)؛ وذلك للدّلالة

على دنوّ المكانة، وتفاوت الحال، لِمَنْ يدعونهم من دون الله، وهو يُشعِرُ بنفي التّساوي بين معبوداتهم الباطلة وبين المعبود الحقِّ ﷻ.

ولفظ ﴿دُونِ﴾ اسمٌ بمعنى (غير)، يدلّ على أدنى مكانٍ من الشّيء، فأُتيَ به للدّلالة على نزولِ ما عَبَدوه في الرُّتبةِ والمقام عن مقام العليّ الكبير، وأمّا لفظ (غير)، فهي غير مناسبةٍ لهذا السّياق كمناسبة ﴿دُونِ﴾؛ لإبهام مفهومها المراد منها، فهي لا تتعرّف بالإضافة، والمفهوم المراد هنا متعيِّنٌ غير مبهم، وهو الأصنام، بخلاف قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: 3]، وقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: 14]، ولم يَقُلْ: (أدون)؛ لأنّ المراد بحكم الغَيْريَّةِ هنا مطلقُ ما سوى الله تعالى، فهو غير مُتَعَيِّنٌ، فيشملُ أيَّ وليٍّ مهما كان، وأيّ خالقٍ سواه سبحانه على جهة الافتراضِ والتحدّي[1].

بلاغةُ التّعبير بالحال والاستقبال:

عبّر النَّظم في قوله تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ بنفي الحال والاستقبال بدلًا من الماضي، فلم يقل: (لم يَخْلُقوا)؛ لقطع تجديد الادّعاء من أيّ ضالٍّ بأنّ معبوداتهم يستطيعون ذلك، واستغراق التّحدّي بعجزهم وعجز آلهتهم المزعومة للحال والاستقبال، وهذا أكمل في التحدّي، مراعاةً لزمن الخطابِ به، إذْ هو منوطٌ بالحاضر والمستقبل، والاقتصار على نفي الماضي يفتح بابَ الإيراد من المُدّعي أنّ عجْزَه كان عارضًا غير مستمرّ، فكلّما أحدثَ إيرادًا وادّعاءً واجَهَهُ التّحدّي بعجزه في كلّ وقتٍ يُحدِثُ فيه ذلك.

الادّعاء يَثْبُتُ بتحقيق أمارَته في الحال والاستقبال

غرض تنكير ﴿شَيْـًٔا﴾:

نُكِّر لفظ ﴿شَيْـًٔا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ إمّا بغرضِ المبالغة في تقرير العموم، فأصنامهم لم يحصل منها خلْقٌ لأيّ شيءٍ من الأشياء، لا حقيقةً ولا مجازًا، لا واقعًا ولا ادِّعاءً، لا صدقًا ولا كذبًا.

المبالغةُ في العموم والتّنويعُ والتحقيرُ

(1) الراغب، المفردات: (دون)، وابن عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 205.

وإمّا بغرضِ التَّنكير للتَّنويع، أي: لم يحصل منها خلْقٌ لأيّ شيءٍ من الأشياء أيًّا كان نوعه، صغيرًا أو كبيرًا، حقيرًا أو عظيمًا.

وإمّا بغرضِ التّنكير للتَّحقير والتّقليل، أي: شيئًا ولو ضئيلًا، فكيف بما هو أعظم منه[1]؟! وهذه الأغراض مرادةٌ، فالنِّكات لا تتزاحم إن نُضِّدت في سلك البلاغة، ويُرشّح إرادة عموم هذه الأغراض، اختيار لفظ ﴿شَيْـًٔا﴾.

بلاغةُ الطباقِ بين النَّفي والإثبات:

لكلّ ساقطةٍ في الضّلال لاقِطة

في قوله تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ طِباقٌ بالسّلْبِ بأداة النفي بين قوله: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ وقوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، فأحَدُ التّركيبين مُثبَتٌ والآخر منفيّ، وغرض الطّباق: تقرير أنّهم جَمَعوا إلى عدمِ خالِقيّتهم لشيءٍ اتّصافَهم بثبوتِ المخلوقيّة لهم، فهم مخلوقون غير خالقين، وهو تَرَقٍّ في الاستدلال، بعد نفي خالقيّتهم فقط في قوله: ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾، وفائدة هذا الاستطراد في الاستدلال: قطعُ الاحتمالِ بأنْ يَدّعي أحدٌ من ضالّي العقول أنّ تلك المعبودات المزعومة لم تَخْلُقْ ولم تُخلَق، فيُثبِتُ لها القِدَمَ، فاستوفى بالنّفي والإثبات بطريق الطّباق موارد الاستدلال عليهم من جميع الوجوه[2].

فائدةُ تقديمِ المسند إليه على المسند الفعليّ:

من أعجب الحماقة أن يعبدَ الصّانع مصنوعَه

قُدِّم المسند إليه على المسند الفعليّ في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؛ للتّعيين والاختصاص، أي: هم خصوصًا يُخْلَقونَ، وفائدة الاختصاص: الإشارة إلى أنّ تلك الأصنام يتوارد عليها الخلْقُ مرّتين، الأولى: خَلْقُها بإيجاد مادّتها الأصليّة على غير مثالٍ سابق على جهة الحقيقة، والثّانية: خَلْقُها بالصّناعة بطريق النَّحْتِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 105.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 131، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 105.

والتَّصويرِ من عابديها، وهو خلْقٌ مجازيّ، من باب المشاكلة للخَلْق الأصليّ الحقيقيّ، فهي غارقةٌ عريقةٌ في توالي صنوفِ هيئاتِ الخَلْقِ عليها بخلاف غيرها[1]؛ ففيه رمي العابدين بسفاهةِ العقول وطياشة الفكر، وغباوة الاختيار وتفاهة التَّطَلُّعاتِ.

بلاغةُ الخبر:

عبادة المشركين مُـنْـكَـرٌ يعلوه عجبٌ

وقعت جملة ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ استئنافًا إخباريًّا لمبتدأ محذوف، أي: هم أموات، أو تَتِمّةُ الخبَر لِما قبله، فقد أخبر عن الّذين يدعونهم من دون الله بخبرين، الأوّل: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، والخبر الثّاني: ﴿أَمْوَٰتٌ﴾[2]، وعلى الإعرابين، فإنَّ الخبريَّة فيهما تَحْمِلُ عُنْصُرَ الإنكار والمفاجأة، أي: أنهم لم يعبدوا مخلوقين فحسب؛ بل عبدوا أمواتًا غير أحياء! وهذا في غاية العجب، وعجيب الإنكار.

بلاغةُ الاحتراس:

مـوتُ الأوثـانِ جُـمـودٌ لا يقبل الحياةَ

وُصف الأموات في قوله تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ بنفي الحياة، والموت لفظٌ يتضمَّن عدمَ الحياةِ، فكان ذلك كالتَّكرار، ونُكْتَتُهُ التَّأكيدُ والمبالغةُ في اتِّصافهم بالموت احترازًا عن مظنَّة الموت المجازيِّ كما هو في وصف الكافرين، واحترازًا من الأموات المتّصفين بالموت بعد سابقِ حياة، أو الأحياء بعد عَدَم، فاحترز بهذا القيد؛ ليدلّ على أنّها جمادات لا تقبل الحياة لا سابقا ولا لاحقًا، ولا يعتريها الشّعور والإحساس[3].

بلاغةُ الاستعارة:

الـضّـالُّ ميِّتٌ لا حياةَ فيه وجامدٌ لا روح تَسْتَعْليهِ

إذا جعلنا المقصود بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ العابدين من المشركين، فيكون قوله تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ خبرًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 106، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 249.
(2) الخطيب، التفصيل في الإعراب: 7/ 139.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 106.

عنهم، وفي وصفِهم بالموتِ استعارةٌ تصريحيّة، حيث شبّه المشركين في ضلالهم - وهم فارغون من الهدى - بالأموات في فراغِهم من الحياة[1]، ويكون وصفهم بغير أحياء من باب الوصف الدّال على الاستمراريَّة، ويكون نظير قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [البقرة: 6]، فالوصف للتَّخويف والتَّحذير من الاتِّصاف بصفاتِهم.

بلاغةُ التَّهكُّم:

البيّناتُ الواضحات إنقاذٌ إلهيٌّ من الضّلالات الحائرات

يحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾، مقصودًا به الأوثان، على معنى أنها جمادات إذا طُلِبَتْ للتّحريك، وأثيرتْ للبعثِ بعد فناء مادّتها، لم تشعر بذلك؛ لأنّها في غاية الجمود، أو المشركون على معنى أنَّهم لا يعلمون زمان بعثهم، ويكون الضّمير في ﴿أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ إمّا للأصنام أو للمشركين، وعلى كلا التّقديرين فيه تهكّمٌ بالمشركين، وتهوينٌ بِعُقولِهم،؛ لأنّه إذا كانت الأصنام التي عبدوها لا تشعر بوقتِ بعثِها وهي آلهةٌ! فأوْلى بها ألا تعلم بوقتِ بعثِ مَنْ عبدوها، فأين إذن جزاء عبادتهم لها؟ وإذا كان الضّمير في ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ للمشركين، فهو تأكيدٌ بانقطاع الصِّلة التّام بين المعبود ومنْ عبَدَه، بحيثُ لا يعلمون عنهم شيئًا ولا يشعرون بهم في أحرج أوقاتهم، وهو زمن البعث، فعبادتهم لها عبَثٌ وإهدارٌ وتضييع[2].

بديعُ فنِّ الإدماج:

إدماج الحديث عن البعث في سياق إثبات التّوحيد

قرَّر السّياق في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ البعث مع تقرير الوحدانيّة لله تعالى في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾، وقوله: ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ وهذا التّقرير من بديع الإدماج؛ لأنّ هذين هما أصلُ إبطالِ عقيدة

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 386، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/ 517.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 517.

المشركين، وتمهيدٌ لثبوتِ التّلازم بين إنكار البعث وإنكار التّوحيد في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾، ولذلك فالظّاهر أنّ ضميري ﴿يَشۡعُرُونَ﴾ و﴿يُبۡعَثُونَ﴾ عائدان إلى الكفّار على طريق الالتفات في قراءة الجمهور، وعلى تناسق الضّمائر في قراءة عاصم ويعقوب[1].

بلاغةُ الالتفات الناشئة عن تنوّع القراءات:

ليس بحيٍّ من لا يشعُر وليس بشاعرٍ من لا يؤمن

إذا جُعلت الضّمائر في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ راجعةً إلى المشركين، فيكون النّظم قد جرى على أسلوب الالتفات من الخطاب للغَيْبَةِ في قراءة الجمهور في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ثمّ التفتَ للغيبة، فقال: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾، وأمّا في قراءة عاصم ويعقوب، فالضّمائر جميعها للغَيْبَةِ اطّرادًا للنّظيرِ مع نظيره ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ثمّ اطّرد على ضمير الغَيْبَةِ جريًا على نفْسِ النّسَق، فقال: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾[2].

نكتةُ التّعبير بمفردة الشُّعور:

عدم استشعار الخطَر دليلُ العجز والقصور

عبّر النَّظمُ بلفظ الشّعور دون مرادفاته في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾؛ لِنُكتةٍ، وهي الدّلالة على انتفاءِ أدنى قَدْرٍ لهم من العِلم، وهو العِلمُ الحاصل بالحواسّ، إذْ هو عِلْمٌ ضروريّ يقع بأدنى مُلابسة؛ لأنّه حِسّيٌّ لا يحتاج إلى نظرٍ واستدلال، فإذا انتفى هذا القدرُ من العِلمِ عنهم، فانتفاء ما زاد عليه في حقّهم أولى وأظهر، سواء كان ضمير ﴿يَشۡعُرُونَ﴾ إلى المعبودين أو العابدين، ومعنى رجوعه للمعبودين: هو ثبوت عجزهم عن أدنى قدرٍ من العلم، فكيف يستأهلون العبادةَ إذن؟! ومعنى رجوعه للمشركين: انتفاء

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 99، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 126.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 126.

عِلمِهم بوقتِ بعثِهم من جميع الوجوه، ولو بأوضح وأظهر طُرقِ العلم وهو الشّعور، لاقتحامه بغتةً عليهم، فلا فُرصةَ عندهم لاستشعار قدومِ البعثِ وحصوله، وفيه من الوعيد والتّهديد لهم ما فيه[1].

وفي تسوية المعبودين والعابدين في احتماليّة نفي الشُّعور إهانةٌ ضمنيَّةٌ للمشركين، فهُم وإن أظهروا أنَّهم يعبدون الأصنام ويقدِّسونها، لكنَّهم في أغوار صدورِهم يعلمون حالَها، فتسويتهم بالأصنام تنزيلٌ لهم منزلة الحجارة، فهم إن شعروا بالإهانةِ صمتوا لعدمِ قدرتِهم على ردِّها، وإن لم يشعروا فهم والحجارة سواء في كونهم وقود النّار.

سرُّ استعمال ﴿أَيَّانَ﴾ دون (متى):

اختصَّت (أيّان) في سياق السُّؤال عن يوم القيامة

﴿أَيَّانَ﴾ اسم استفهام عن الزّمن المُستَقبَل، ولا تُستعمل إلّا في سياق التّفخيم، فيُستَفهَمُ بها عن الشّيء العظيم، بخلاف (متى) فإنّها عامّة في الاستفهام عن الزّمان، ولا تختصّ بموقفٍ دون آخر، ولذا آثرَ هنا في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ التّعبير بأداةِ ﴿أَيَّانَ﴾ لِخَطَر أمرِ البعثِ، وتفخيمًا لشأنه وإعظامًا له ولكونه أرهبَ شيءٍ يُنتظَرُ للكافرين، وأرغبَ شيءٍ يُرتجَى للمتّقين[2]، وقد أتت في القرآن ستَّ مرّات كُلّها في سياق البعث.

نكتةُ بناء الفعل للمفعولِ:

الإطنـاب على التّحقيق إيجازٌ لاكتنازه اللّطائف والفوائد

بُني الفعل للمفعول في قوله تعالى: ﴿يُبْعَثُونَ﴾ إيجازًا في النَّظْم؛ لوضوح الفاعل في اختصاصه بالفعل وقَصْره عليه، فلا يَقْدِرُ على البعث إلّا اللّه، ولو جاء الفعل على تسمية الفاعل، فقيل: (وما يشعرون أيّان يبعثهم اللّه)، لكان فيه إطنابٌ فيما هو واضحٌ لا يحتاج إلى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شعر)، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/ 517، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 126.

(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 1/ 669.

تنبيه، والإطناب في القرآن على التَّحقيق إيجازٌ لما فيه من الفوائد العظيمة، واللّطائف الجليلة، كما أنَّ فيه محافظةً على الفاصلة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإسرار والإخفاء:

الإخـــفـــاء في الأعيان والمعاني، ويَغْلُبُ الإسرارُ في المعاني

الإسرار: هو إنزال الشّيء منزلةَ السِّرّ، والسّرّ: هو إخفاء الشّيءِ في النّفْس، ويُقال: في هذا الكلام سِرّ؛ تشبيهًا له بما يُستودَع النّفْس؛ ولذا غلبَ استعمالُه في المعاني دون الأعيان، فلا يُقال: أسررتُ تحتَ الثّيابِ قطعةَ خُبْزٍ؛ بل يُقال: أخفيت، والإخفاء: هو سَتْرُ الشّيء عن الحواسّ، فلا يُرى ولا يُسمَع، وكما يُسْتَعْمَلُ في الأعيان يُسْتَعْمَلُ في المعاني؛ ولذا أُسْنِدَ إلى الصّدورِ ﴿وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: 19]، واستُعمِل في عمومِ كلِّ مَخْفيّ ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ [الممتحنة: 1]، فالإخفاء أعمّ من الإسرار[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 447، ص: 533، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خفي - سر)، والراغب، المفردات: (خفى - سرر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»